مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies)
جامعة وهران02/ المجلد 11 ع 03، 16/ 06/ 2022
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

ابستمولوجيا النص القرآني عند محمد أبي القاسم حاج حمد

Epistemology of the Qur'an text according to mohammed abi Al-Qasim Haj Hamad

اليامين كنان liyamine Kenane aminekenane201806@gmail.com	فلسفة إسلامية	مخبر المجتمع الجزائري المعاصر/ كلية العلوم الانسانية والاجتماعية/ جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2/ الجزائر

DOI : 10.46315/1714-011-003-015

الإرسال: 13/ 02/ 2021 **القبول**: 23/ 05/ 2021 **النشر**: 16/ 06/ 2022

ملخص:

يحاول المقال رصد أهم الملامح الابيستمولوجية للنص القرآني انطلاقا من الحامل المعرفي والدلالي للمصطلح القرآني إلى تبيان التصورات المعرفية العامة للوحي، وذلك بالنظر إلى أسس المنهج العلمي والمعرفة الحديثة.

عمدت الدراسة على استظهار الأبعاد المعرفية للنص القرآني كالوحدتين العضوية والبنائية، حيث اتاحت للوحي قدرة على التركيب المنهجي بين أسس المنهج العلمي والمضامين المعرفية للوحي، وظهر هذا التركيب جليا من خلال جدة تصنيفه للمنهج، وتحديد موقفه من إمكانية المعرفة، واستيعابه لأهم مبادئ العلم وتجاوزه له نحو غاية توحيدية حددها الوحي، وبالتالي يعتبر المنهج التركيبي القرآني بديلا منهجيا ومعرفة وظيفية.

كلمات مفتاحية: النص القرآني؛ المعرفة؛ منهج الخلق؛ حاج حمد؛ منهج التشيؤ.

Abstract:

The article attempts to observe the most important epistemological features of the Qur'anic text on the basic of the epistemological and semantic of the Qur'anic content of the term to clarify the general cognitive perceptions of revelation, by looking at the foundations of the scientific method and modern knowledge

The study intended to clarify the epistemological dimensions of the Qur'anic text, such as the two organic and structural units which allow the revelation to be able to synthesize between the foundations of the scientific method and the cognitive contents of the revelation systematically, and this was demonstrated through the novelty of its classification of the method, its position on the possibility of knowledge and its assimilate of the most important principles of science and transcending it towards a monotheistic goal that is defined by the revelation. Consequently, the Qur'an cognitive approach is considered as an alternative methodology and functional knowledge.

Keywords: Quranic text; knowledge; creation method; Haj Hamad; positivist method.

مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies)
جامعة وهران02/ المجلد 11 ع 03، 16/ 06/ 2022
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

مقدمة

يشكل النص القرآني بعدا مركزيا في فضاء الثقافة العربية والإسلامية، حيث نشأت على ضوئه مجموعة هامة من العلوم والمعارف، إذ أحدثت المكاسب اللغوية للمتقدمين مقاربة بيانية وبلاغية له، فنشأت مدونات التفسير المختلفة، ونتيجة التحولات المعرفية والتاريخية تعددت مسالك وآليات القراءة.

مع بزوغ الأزمنة الحديثة عرف رصيد الإنسان قدرة تفسيرية وقوة منطقية تسلحت بها مختلف ألوان المعارف البشرية، مما زاد الرغبة في استثمار هاته النواجز في قراءة النص القرآني، وهو ما حدث بالفعل، إذ عرف الفكر العربي والإسلامي عدة مقاربات التي حاولت تلقي النص القرآني باستعمال الأدوات المعرفية والمنهجية الحديثة، بيد أنها اصطدمت بمجموعة من الثنائيات وجاءت تحت مسميات مختلفة العلم والإيمان، الغيب والواقع، العلم والدين ...حيث عبّرت عن وضع إشكالي تلمَس المفكر السوداني وضعه الإحراجي ،الذي استلزم منه الإتيان بمقاربة صارمة لا تستلب مضمون الخطاب الإلهي وفي نفس الوقت تولّد شعورا بالراهنية والمعاصرة، وعليه تتحدد لنا الإشكالية التالية:

ماهي الأبعاد المعرفية للنص القرآني؟

وتتفرع الإشكالية إلى جملة من المشكلات الفرعية وهي:

- ما أهم المقاربات المفهومية للوحي؟
- ما الخصائص المعرفية التي اتسم بها النص القرآني؟
- ما الأدوار المعرفية للقرآن؟

وقصد معالجة الموضوع ودراسة جوانبه الإشكالية استخدمنا خطوات المنهج التحليلي، فهو الأقدر على الإحاطة بتفاصيل ودقائق الدراسة، التي تهدف إلى تبيان أهم الملامح الابيستمولوجية التي اتسم بها النص القرآني، وإبراز وظائفه المعرفية بالنظر إلى الأدوات والمناهج التي تميز بها المنهج العلمي والمعرفة الحديثة.

1-مدخل مفاهيمي

أولا: مفهوم النص

النص في اللغة جَعلُ الشيء بعضه على بعض، وجاء أيضا بمعنى التحريك والسير الشديد، والنص "أقصى الشيء وغايته .... وهو من مفرد ينصنص أي إيراد الموارد.... ونصنص الرجل غريمه إذ استقصى عليه"(ابن منظور ج، 1999، الصفحات 163-164)، وجاء في التعريفات للقاهر

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الجرجاني أن النص "هو ما زاد وضوحا على الظاهر بمعنى المتكلم .... فهو سَوق الكلام لأجل ذلك المعنى" (الجرجاني، ع، 2006، صفحة 216).

ويطلق النص في لغة العرب على كل ما من شأنه البحث والاستقصاء وبلوغ الغايات والمرامي حتى تظهر وتتجلى، وبذلك هو يقترب على ما يعتبره الألسنيين واللغويين فضاءً دلاليا رحبا لاستجلاء المعاني، غير أنّ النص في المعاجم اللغوية الغربية يقابل كلمة texte بمعنى نسيج، أي نسيج من الكلمات والأفكار والجمل المترابطة فيما بينها ربطا منتظما، حيث ورد في معجم اللسانيات أن النص يطلق على الملفوظات اللُّغوية القابلة للتحليل والتفسير، فالنص نموذج من السلوكيات اللغوية التي يمكن أن يكون مكتوبا أو منطوقا (الصبيحي،م، د ت، الصفحات 19-20).

ثانيا: مفهوم النص القرآني

يطلق النص القرآني على القرآن، أي ما جمعه القرآن بين دفَّتيه من آيات وسور، وسُمّي قرآنا " لأنه يجمع السور ويضمها .... وقرأت الشيء قرآنا جمعته وضممت بعضه إلى بعض.... وسمي قرآنا لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد (ابن منظور، ج، 2003، صفحة283)، ويذهب الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن "أنّ سبب التسمية يرجع إلى مفردة القرائن، إذ تعد الآيات قرائن، فهي تصدق بعضها بعضا (الزركشي، ب، 1990، صفحة 375)، والقرآن هو الوحي المنزل على النبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي تناقله المسلمون بالتواتر، المكتوب في المصاحف (الزرقاني، 1995، صفحة 121).

2-المفهوم الفلسفي الحديث للنص القرآني

عرف الفضاء الحديث للثقافة العربية والإسلامية عدة مقاربات مفهومية للوحي، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى التطورات الحاصلة في الفلسفات والعلوم الإنسانية وما افرزته من آليات ومناهج وأدوات للقراءة والتلقي واستنطاق النصوص الدينية وغير الدينية (تواتي منير، 2021، صفحة 68)، حيث أدّت هذه الأخيرة إلى ظهور مفاهيم جديدة للقرآن، والتي تصبوا إلى جعله أفقا معرفيا يتطلب التعامل معه جملة من الأدوات المنهجية والطرق المعرفية، فأصبح الوحي بموجب ذلك ظاهرة نصية وخطابية وحدثا كونيا قابلا للدراسة والتحليل، غير أن الأمر البالغ الأهمية هي المستويات التي وضعت فيه الآليات النص القرآني والوحي عموما، حيث عملت على "نقله من الغيب إلى الظاهرة، من التعالي إلى المحايثة، من اللاتاريخي إلى التاريخي، من القداسة إلى الأنسنة..... وذلك في إطار إلحاق مفاهيم جديدة به"(حمادي، ه، 2012، صفحة61).

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

أولا: القرآن باعتباره ظاهرة نصية

انتقل مفهوم الوحي في السياقات الفلسفية الحديثة إلى اعتباره مبحثا هاما لإنتاج المعرفة، فهو يجسد مبحثا نصيا وأفقا معرفيا يزخر به النص القرآني، وهو ما شكّل لدى المحدَثين فضاءَ جديدا جديرا بالبحث والدراسة، فمجال الدراسات النصية تتعلق أساسا بالبحث اللغوي أو ما يمكن الاصطلاح عليه "بعلم النص" وما أفرزه من دراسات فللولوجيه، حيث لا يغدو النص أداة معرفية وحسب وإنما أصبح نفسه ميدانا معرفيا مستقلا (مرزوق العمري، صفحة 15).

إنَ التطورات المتسارعة في مجال الدراسات النصية جعل من استنطاق النصوص الدينية أمر بمنتهى الأهمية بغية الوصول إلى كنهها وتمثل معانيها وإدراك البنى الداخلية لها، فالنص القرآني وما يزخر به من بيان وبديع وترابط وانتظام علاقاته ومكوناته وتراكيبه النحوية واللغوية شكّل موضوعا رحبا للقراءة والتلقي، لاسيما بظهور اللّسانيات النصية (الصبيحي، م، دت، صفحة70)، ففي إطار اللسانيات النصية يبدو القرآن هيكلا مركبا من كلمات وجمل منتظمة ومترابطة داخليا قابلة للتحليل والفهم والتفسير، بغية كشف المعنى والدلالة (أركون،1996 صفحة 29).

ثانيا: القرآن باعتباره ظاهرة خطابية

يعرف الخطاب على أنه قول منطقي يعبّر عن جملة من الأفكار والمعاني بواسطة قضايا ترتبط فيما بينها ترابطا وظيفيا، حيث تحقق أبعاداً لغوية واتصالية (مرزوق، ع،2012، صفحة31)، أو "هو الممارسة الفعلية الاجتماعية للنص" (الصبيحي، م، دت، صفحة73)، حيث يشكل ظهور الخطاب الذي افرزته التطورات الحاصلة في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية لدى المحدثين ارتقاء بالنص القرآني إلى درجة العلمية والواقعية، فمفهوم الخطاب يجعل من الوحي قابلا أكثر للتحليل، هذا ما اتاحته الأدوات المعرفية الحديثة من حفر وتفكيك وتحليل للخطاب، وهي أهمية ألحّ عليها محمد أركون في كتابه " الفكر الإسلامي نقد واجتهاد" حيث يقول:" أفضل التحدث شخصيا عن الخطاب القرآني .....فهو يأخذ أهمية كبرى في ضوء الألسنيات الحديثة" (أركون، م، 1996، صفحة77).

ثالثا: القرآن باعتباره حدثا كونيا

لقد تعدّدَت المستويات المفهومية للوحي، حيث انتقل من كونه ظاهرة نصية، الى كونه ظاهرة خطابية، إلى اعتباره ظاهرة كونية، وهو مفهوم يجعل من الوحي القرآني معطى قابلا للدراسة العلمية، وقائما في محك الملاحظة والواقعية، فالحدث الكوني هو معطى قابل للتحليل والبرهنة والتفسير بما هو متاح من أدوات معرفية ومنهجية، ما يسمح بأن يكون أكثر غنى وفاعلية من

الناحية التاريخية، حيث يؤكد أركون أن استخدام "مفهوم الحدث القرآني عن قصد هو أكثر فعالية وغنى من الناحية العلمية من مصطلح القرآن نفسه"(أركون، م، 1995، صفحة12).

عمل المفكر الجزائري مالك بن نبي على توصيف القرآن "بالظاهرة "وذلك في كتابه "الظاهرة القرآنية"، حيث عمل على دراسة النص القرآني باعتباره حدثا كونيا قابلا للدراسة العلمية عن طريق استخدام المنهج التحليلي، والذي أفرزته النظريات المعاصرة لعلم الاجتماع ومبادئ علم النفس التحليلي، حيث أصبح الوحي حدثا تاريخيا كونيا و"ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها" (بن نبي، م، 2000، صفحة 300).

3-مفهوم القرآن عند محمد أبو القاسم حاج حمد

يقدم المفكر السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد مفهوما معاصرا وفريدا للنص القرآني حيث يعرفه بأنه " الوعي المعادل للوجود الكوني وحركته" (حاج،ح،2003، صفحة84)، وهو مفهوم يتجاوز به كل المفاهيم الكلاسيكية، حيث يُقدّم فيه قدرة الهية على وصف الكون وما يحدث فيه من متغيرات معرفية وذهنية، إذ يُصوّر الخطاب الإلهي في الآية " ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم" (الآية 87، سورة الحجر)القرآن وهو مقابل للوجود الكوني، غير أنّ هذه المقابلة لا تقتصر على الوصف فقط، فعن طريق الاستخدام الإلهي للغة البشرية أصبح القرآن له القدرة على الإحاطة بتلك المتغيرات ووصفها وصفا معرفيا ومنهجيا، وذلك مصداقا لقوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون" (الآية 5 سورة الأنعام).

ابدى حاج حمد امتعاضه من المفاهيم الكلاسيكية للوحي وفق المقاربات اللغوية التي تمثلت معانيه وفق أوضاع بلاغية وبيانية، وهو وضع يَشي بمحدودية معرفية ومنهجية "لأن اللّغة العربية مدينة القرآن العظيم لا بثرائها ولغتها وبديعها وبيانها فقط، بل بحياتها كلها، ومع ذلك فكثير ما نرى اللّغويين يُقرّرن قواعد اللغة والنحو وفق ألسنة الأعراب .... وكلام الله أقوى وأجل" (حاج، ح، 2003، صفحة 16)، وفي المقابل يرفض أيضا التأويلات والتفسيرات المعاصرة التي رهنته في أبعاد تاريخانية ومتغيرات اجتماعية، حيث اعتبرها مناهج قاصرة معرفيا ومنهجيا لأن اللغة القرآنية هي أكبر من المناهج المعرفية النقدية والتحليلية (حاج، ح، 2013، صفحة 12).

ان التعريف المذكور آنفا هو تعريف منهجي من أجل استخراج ضوابط معرفية وابستمولوجية للتعامل مع القرآن نفسه، أو في علاقته مع الوجود، فحاج حمد يفترض أن القرآن هو إطار منهجي يستوعب كافة الأنظمة والأنساق المعرفية، بل يتجاوزها فهو كتاب تدويني يؤطر الكتاب التكويني-

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الكون-، حيث يقف تعريف القرآن بأنه الوعي المعادل للوجود الكوني على نَفس عرفاني ذو رؤية كونية توحيدية، إذ يَعتبر أن الله قد وصف الكون الطبيعي بالكتاب، والنص القرآني هو أيضا كتاب وكلاهما يستجلب مظاهر القراءة، قراءة الكتاب المسطور والكون المنثور.

4-الخصائص المعرفية للنص القرآني

أولا: ابستمية المصطلح القرآني:

تتحدد ابستمية المصطلح القرآني عند حاج حمد أساسا في عوائده المعرفية والدلالية، فبالإضافة إلى الخصائص المعرفية التي يتسم بها النص القرآني عموما تتمتع المفردة القرآنية بضوابط معرفية ومنهجية صارمة وتكمن صرامتها في الاستخدام الإلهي لها، وهو ما يميزها عن الاستخدامات البشرية الأخرى، فلكل مفردة موقعها في النص ودورها الدلالي والمعرفي، فلا مندوحة بعد ذلك من أن ينتفي عنها الاشتراك والترادف والتضاد، حيث يتعالى الوحي عن غيره من الاستخدامات البشرية للّغة المتميزة بالتقابل والاشتراك والترادف "فالاستخدام القرآني للمفردة اللغوية وعائدها المعرفي بدلالة واحدة تنفي أي ترادف أو اشتراك أو تضاد، وبما يُخرج اللُّغة من حيّز الكلام إلى حيز المصطلح، بما في ذلك التمييز المعرفي بين اسم العلم كآدم، واسم المحمول كزوج"(حاج، ح، 2004، صفحة261).

يذهب حاج حمد إلى أنّ الاستخدام الإلهي للّغة العربية قد ضَبط دلالات المفردات والحروف التي تنسج النص القرآني، فلكل حرف وظيفته الألسنية والبنيوية، وهذا يرجع إلى بنائية القرآن "فحين يستخدم الله اللغة العربية في التَّنزيل فإنَّه يستخدمها وفق مستوى إلهي يقوم على الإحكام المطلق .... فلكل كلمة دلالتها المفهومية خلافا للاستخدام البشري البلاغي .... فلا يورد القرآن مس بمعنى لمس إطلاقا"(حاج، ح، 2003، صفحة 98)، وهذا الأخير هو طرح مستجد في الثقافة العربية الإسلامية وتعاملها مع المصطلح القرآني، إذ يتجاوز المفاهيم اللغوية والبيانية، ويتعالى على النظر إلى جمالية اللفظ وقوة المعنى، لأنه يفترض وضعا علميا للمصطلح القرآني قائم على التحليل والفهم والتفسير والإتيان ببدائل منهجية، إذ تروم الروابط التي تنسج النص الدقة والضبط الصارم، وهي هنا لا تختلف عن غيرها في العلوم الرياضية والفيزيائية.

ثانيا: النص القرآني والوحدة العضوية

لا يختلف اثنان على أن المعارف والعلوم الحديثة قد أرست دعائمها عن طريق المنهج العلمي القائم على الثنائية المعرفية الذات العارفة والموضوع المدرك، التي أتاحت إطارا منهجيا يسمح بتفسير دقائق الظواهر في الطبيعة، حيث تشكل نسيجا كونيا محددا ذو بنية منتظمة متسمة

بوحدة عضوية شاملة ، فمكونات النسيج الكوني ترتبط فيما بينها لتبدو مجالا موضوعيا متراتبا، وهذا الأخير جعل أمام الذات العارفة قدرة على الوصول إلى نظريات علمية مؤسسة على ضوابط منهجية وأبعاد موضوعية، حيث شكلت جدلا واضحا بين الإنسان والطبيعة (حاج، ح، 2003، صفحة 94).

يرى حاج حمد أن النص القرآني يحمل الخصائص البنائية والعضوية ذاتها للنسيج الطبيعي، فأجزاء الطبيعة كأجزاء النص القرآني كلاهما تترابط مكوناتهما فيما بينها عضويا، وهذا المبدأ خلص إليه حاج حمد من خلال مفهومه للوحي باعتباره وعيا معادلا للوجود الكوني وحركته، حيث يَعتبر أن القرآن هو بنية منتظمة تتميز بالكلية والشمولية ومكوناته غير قابلة للتقسيم أو التجزيء، كما هو حال المتقدمين في تعاملهم مع الوحي حين تم تفكيكه إلى مكي ومدني، مترادف ومشترك، ناسخ ومنسوخ.... والبعض منه محصور في عصر التنزيل (حاج، ح،2004، صفحة262).

يَتأكّد في مستويات الإثبات أن القرآن كوحي إلهي، والطبيعة كموضوع مدرك لهما نفس الخصائص العضوية، حيث تبدو ملامح الوحدة العضوية في القرآن على مستوى النسيج اللغوي له، في اتساق حروفه ومفرداته، وترتيب سوره وآياته، وعلى مستوى التراكيب التي تشكل المبنى العام للنص القرآني "وهذا ما فعله الله سبحانه وتعالى على مستوى بنائية الكون الطبيعي.....أو على مستوى بنائية القرآن..... ثم يمضي الله على التركيب المنهجي فيستوي به كتابا منهجيا" (حاج، ح، 2003، صفحة94)، فالطبيعة التي تمر بحالات الانفلاق والتوالد والانفجار، القرآن أيضا على مستوى بنائيته يُقرأ ويُفرق ويُنزّل، وإذا كانت علاقة الإنسان بالطبيعة هي علاقة وعي معرفي، فعلاقة الإنسان بالوحي هي علاقة وعي إلهي ومنهج رباني.

تُشكّل لحظة إعادة ترتيب الوحي بناءً للوحدة العضوية للقرآن، وهي لحظة تجسّدت في الختمة الأخيرة التي ألقاها النبي عليه الصلاة والسلام على أمين الوحي جبريل عليه السلام، حيث لا تعتبر إعادة ترتيب للسور والآيات والمفردات فقط وإنما اعتبرها حاج حمد ترتيب معرفي ومنهجي للقرآن، بل هي لحظة الخروج من التعيين إلى الإطلاق، خروج من خطاب الخصوص إلى خطاب العالمية والكونية" إنَّ إعادة الترتيب .... خروج بالقرآن من التعيين إلى الإطلاق إذ بموجب هذا الترتيب ..... المماثل للتركيب الكوني ...يتَّخذ القرآن وحدته العضوية كما يتخذ الكون وحدته البنائية فيتكافأ بمضمون وعيه السبع المثاني -الكون-ومن هنا تنبع مستقبلية القرآن" (حاج، ح، 2003، صفحة 96)، فالنص القرآني بوحدته العضوية يستجلب القراءة والتلقي والتفاعل المعرفي مثل الكون الذي يستدعي الاستقراء والبحث والاستقصاء، وكلاهما يستفزُّ الانسان لتحريك أدواته المعرفية.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

ثالثا: القرآن والوحدة البنائية

تتعدد الوظائف والخصائص المعرفية للنص القرآني، فالقرآن المتَّسم بالوحدة العضوية يتميز أيضا بوحدته البنائية، وهذا من منطلق أن النص القرآني هو نسيج متسق من المفردات والحروف والروابط التي تشكل المبنى العام للنص، حيث تنتظم فيه مواده ووحداته لتشكّل وحدة بنائية، كما تنتظم المواد في المجال الكوني "فالقرآن في بنائيته الحرفية يماثل البنائية الكونية، بحيث إذا انفلت نجم من موقعه اختل نظام الكون كله، ولهذا قابل الله بين البنائية الحرفية للقرآن ومواقع النجوم فلم يقسم بالنجوم، ولكن أقسم بمواقعها في سياق تعريفه بخصائص القرآن البنائية"(حاج، ح، 2003، صفحة 96).

أتت الآيات المذكورة في سورة الواقعة " فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعلَمُونَ عَظِيمُ، اِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمُ" (الآية 77.76.75 سورة الواقعة) على تأكيد الوحدة البنائية للوحي، فالقرآن هو كُلّية واحدة، ونسيج عام لا تتغير مواقع حروفه أو مفرداته، فإذا تغيرت مواده حدث اختلال معرفي ودلالي للوحي، وعلى هذا الأساس يبدو القرآن بعيدا عن توظيفات الجناس والطباق بل عن كل أشكال الترادف والتضاد، لأنّ كل كلمة لها دلالتها المفهومية والمنهجية (حاج، ح، 2003، صفحة 97)، وهنا لا يُفَوّت حاج حمد شعوره بفداحة المتقدمين في تعاملهم مع المفردة القرآنية حينما أسقطوا قوانين ومبادئ اللغة العربية على القرآن، وتم إقرار النسخ مما أدى إلى ضياع العوائد المعرفية والدلالية للنص، وفي هذا يقول: حاج حمد " وهو أمر بمنتهى الفداحة، إذ يؤدي إلى فقدان الوظيفة المعرفية للقرآن، كما أدَّت تلك المحاولات إلى إقرار النسخ"(حاج، ح، 2005، صفحة 37).

5-المنهج القرآني والمعرفة الحديثة

تتحدد ابستمولوجيا النص القرآني عند حاج حمد من خلال تلك التقاطعات التي يشترك فيها الوحي ونظرية المعرفة وفلسفة العلوم الحديثة فيما يتعلق بالنشاطات المعرفية والمحصلات الادراكية للإنسان، حيث يؤكد العلم كما يؤكد القرآن أن الإنسان هو وليد المجال الكوني، غير أن المنهج القرآني يفترق عن المنهج العلمي في النهايات، إذ تنتهي المعرفة الحديثة إلى ثنائية جدلية وهي ثنائية الإنسان والطبيعة بمعزل عن الغيب " فالقرآن يُقَرّر كما تُقَرّر فلسفة العلوم الطبيعية أن الإنسان مولود طبيعي للمجال الكوني يمكن أن تنسحب عليه كافة القوانين والنظريات المتولدة عن العلوم الطبيعية، ثم تفترق المنهجية المعرفية للقرآن افتراقا جذريا عن المنهجية المعرفية لفلسفة العلوم الطبيعية" 'حاج، ح، 2003، صفحة 112).

في ضوء المنهج العلمي تحولت المعرفة الحديثة وتوجهاتها التفسيرية والمنطقية إلى رؤية للعالم، وأصبحت المادية نموذجا إرشاديا وجدلا تؤول إليه كل الفعاليات المعرفية والوجودية، بل أصبح المنهج العلمي نزعة تصوغ مفاهيمنا ونظراتنا إلى العالم (دواق، ح، 2015، صفحة173)، وفي هذا عمد حاج حمد إلى جملة من المسائلات النقدية لأسس المنهج العلمي وكل مقررات فلسفة العلوم الطبيعية انطلاقا من رؤيته المعرفية والمنهجية للنص القرآني، حيث أقرّ بأن المعرفة العلمية انتهت إلى نزعة وضعية، وهي التي تشكل التأويل الفلسفي للعلم الذي يناقض المبادئ الغيبية والتصورات الإيمانية للوحي، وهو مأزق وقعت فيه المعرفة العلمية، وأضحى البحث عن بدائل منهجية أكثر من ضرورة، حيث يراه حاج حمد في العودة المعرفية والمنهجية للنص القرآني، فهو وحده القادر على التركيب والتكامل وتقديم الرؤية الكلية وتجاوز الاختلالات التي وقع فيها المنهج العلمي.

إن علاقة القرآن بالمعرفة الحديثة هي علاقة استيعاب وتجاوز باتجاه المطلق، الذي يَتأسَّس على مفاهيم كونية من خلال التأكيد على ازدواجية التوجه الإنساني، ففضلا عن النزوع الطبيعي في الإنسان ينحو أيضا إلى التوجهات القيمية، وبالتالي تبدو علاقة الوحي بالعلم، علاقة فعل والقيمة من الفعل، وهو منبت البعد التركيبي في أطروحة حاج حمد التي اصطلح عليها بالمفاهيم الكونية المطلقة (حاج، ح، 2004، الصفحات 103-104).

6-التركيب المنهجي في القرآن

وصلت المعرفة البشرية إلى مستوى من الفهم والإدراك ما يمكّنها من فهم وتفسير أدق الظواهر والأشياء في الطبيعة، ولعل مَرد ذلك هو قوة المنهج العلمي، بيد أنه انتهى إلى علاقات التفكيك والتشيؤ، وأضحت كل الظواهر بما فيها الظواهر الإنسانية لا تخرج عن هذا الإطار، وأصبح الإنسان كغيره من الظواهر الطبيعية، وهذه الأخيرة تختزلها صفة الوضعية التي قَنَّنت لعلاقات الصراع والتضاد، وتناقض بموجبها الإنسان بين بداياته باعتباره وليدا للرحم الكوني ونهاياته القيمية، ولهذا يُكرّر حاج حمد دعوته إلى قراءة النص القرآني قراءة ابستمولوجية، فالقرآن وحده الذي يتضمن المنهج التركيبي والتكاملي(قاسمي، م،2020،صفحة243)، فهو يزاوج بين متطلبات الإنسان المعرفية وآفاقه الإيمانية المرتبطة بالقيمة، حيث تبدو ملامح التركيب المنهجي من خلال المبادئ التالية:

أولا: مصادر المعرفة في القرآن: يُصوّر المنهج القرآني الإنسان وهو مولود للرحم الكوني، حيث تُؤكّد فلسفة العلوم الطبيعية كما يؤكد الوحي أن للإنسان أدوات للمعرفة من حواس وعقل ونفس يتفاعل بموجبها مع مختلف الظواهر التي تحدث في الطبيعية، فالخطاب الإلهي في القرآن

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

يجدد استفزازه لهاته المصادر المعرفية حيث قال تعالى:" أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَت، وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَت، وإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَت" (الآيات،17،18،19،20، سورة الشمس).

ثانيا: الرؤية القرآنية لأسس المنهج العلمي: ينطلق حاج حمد من مُسلَّمة مفادها أنّ القرآن يُقرّ بأسس المنهج العلمي الحديث، فالإنسان كما ذكرنا آنفا هو مولود للمجال الكوني ويدخل ضمن هذا الإطار جملة العلاقات المعرفية التي تخضع أطره الإدراكية وسلوكياته العقلية والنفسية لمبادئ العلم التجريبي (حاج، ح، 2003، صفحة118)، إلاّ أنّ المنهج القرآني يفترق عن المنهج العلمي في النهايات، إذ انتهى العلم إلى تأويلات فلسفية وضعية ضمن إطار جدل الطبيعة والإنسان، الذي أفضى إلى تنامي سيطرة الإنسان بالعلم على الطبيعة، وهو ما يبدي في المقابل تضاؤلا لملامح الغيب وأثره في الكون (حاج، ح، 1996، صفحة497)، مما أدّى به إلى وضعية صارخة ونافية للغيب.

ثالثا: المنهجية المعرفية القرآنية: يحتوي القرآن على منهج معرفي يتعالى به على المنهج العلمي، فهو ينتهي إلى كلية متكاملة تحقق إعجازه "فتركيبة القرآن التي نتعامل معها في سبيل الوصول إلى محتويات القرآن ...هي تركيبة المنهج والمعنى" (حاج، ح، 2010، صفحة 131)، إذ يرى حاج حمد أنّ سورة العلق قد أسَّسَت معالم المنهج المعرفي في القرآن، حيث أتت على ذكر نمطين من القراءة يعبران عن مستويين في المعرفة لكل منهما منهجه الخاص، إذ استهل الخطاب الإلهي في السورة دعوة الإنسان إلى النظر والتفكر، ثم دعت إلى القراءة باسمه جلّ وعلاَ فقال تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقْ" (الاية1، سورة العلق)،وهي دلالة على منهج الخلق بما يحمله من معالم الغيب والإيمان وما يجسده من غايات أخلاقية وقيمية في الكون، ثُم مَضت الآيات إلى قراءة القَلم فقال تعالى:" اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَم "(الآيات 3،4 سورة العلق)، وهي إشارة إلى علم الإنسان في علاقته بالإطار الطبيعي وفق ثنائية الذات العارفة والموضوع المدرك مثل ما اقره المنهج العلمي والمعرفة الحديثة، ويُسمّيه حاج حمد "منهج التشيؤ" لأنه قراءة موضوعية للظواهر في الطبيعة، وما تحمله من استقراء واستدلال ونظر.

إن المنهج المعرفي القرآني من خلال إقراره بالقراءتين إنَّمَا يَعمد إلى تحديد إطار ابستمولوجي تتزاوج فيه المعارف الكبرى للمنهجيتين وفق توجه واحد وهو التوجه الغيبي والإلهي الذي أقره الله جل وعلا في الكتاب العزيز، منهج التشيؤ الذي يشمل مبادئ وقوانين العلوم ويتناولها العقل بصفة موضوعية في المجال الطبيعي، ومنهج الخلق الذي يجسد معالم الغيب في الكون ويشير إلى

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

مستوى التخليق الإلهي، وبذلك يستوعب ويتجاوز أسس ومقررات المنهج العلمي، فالمعرفة العلمية تنتهي إلى تقنين وضعي للأشياء، بل تحاول إسقاط مبادئها على كل الظواهر الكونية بما فيها الظواهر الإنسانية، فكرّست قوانين الصراع والتضاد مثلما جاءت به الداروينية والفلسفات الوجودية، في المقابل تخلد منهجية المعرفة القرآنية إلى توظيف قوانين العلم نحو غاية إلهية، (حاج، ح، 2003، صفحة 178).

خاتمة

بعد هذا التطواف المعرفي يمكننا القول: أن هناك تعدد في المقاربات المفهومية للوحي، وذلك يعود أساسا إلى التحولات المعرفية والتاريخية التي تختلف في تعاملها مع المفردة القرآنية، ونظرا لاختلاف الأدوات والمناهج.

أتاح المنهج العلمي والمعرفة الحديثة فرصة لاستثمار مفاهيم معرفية جديدة للنص القرآني، والتي تعددت بتعدد مناهج وأنماط المعرفة الحديثة، حيث أصبح الوحي من جملته أنه ظاهرة نصية وخطابية، وحدثا كونيا قابلا للدراسة والنقد والتحليل.

عمدت الوحدتين العضوية والبنائية للنص القرآني إلى تبيان أهم الأبعاد المعرفية التي اتسم بها النص القرآني، وهما خِصِّيصَتان أتاحتا أفق القراءة والتلقي، حيث تتحدد العلاقة بين الوحدة العضوية والبنائية معرفيا من خلال الطابع اللغوي الخاص للوحي، إذ فتحت السُّبل للتعامل مع القرآن بطرق معرفية ومنهجية، غير أن هذه الخصائص المعرفية لا تسمح باستثمار المناهج والأدوات التي اتاحتها الابيستمولوجيا الحديثة في قراءة النص القرآني بطرق إجرائية واضحة.

يقوم المنهج المعرفي القرآني على قراءتين التوجه الإيماني -قراءة الخلق- والتوجه العلمي -قراءة القلم- حيث تتزاوج فيه المعارف الكبرى للمنهجيتين وفق توجه واحد، وهو التوجه الغيبي والإلهي، وهو مكمن البعد التركيبي الذي حاول أبو القاسم حاج حمد التأكيد عليه، بيد أن هذا الاستنطاق المعرفي للنص القرآني ولو أنه يتقاطع مع بعض التصورات العامة للمنهج العلمي، إلا أنه يغض الطرف عن باقي المرتكزات التي قامت عليها المعارف الحديثة، إضافة إلى أن محاولة استظهار بعد معرفي للوحي يضمر ذاتية تجاوزها المنهج العلمي بأسسه القائمة على أبعاد موضوعية، والبعيدة عن الذاتية في تعاملها مع مختلف الظواهر.

تُستنبت الأدوار الابيستمولوجية للقرآن من خلال تبنيه لأسس المنهج العلمي بما فيها إمكانية المعرفة البشرية، ويقع رفضه في التأويل الفلسفي له، وهو التأويل الوضعي الذي تحول إلى رؤية مادية إلى العالم تنمحي فيه كل معالم الغيب والإيمان، حيث تظهر وظيفة الوحي جليا عند حاج

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

حمد من خلال بعده التركيبي بين مقررات العلم والدين، غير أن هذا المنحى التركيبي ليس بصفة مطلقة، إذ يستهدف المنهج العلمي تفسير الظواهر في الطبيعة ودراستها تجريبيا، أما الدين فيروم الحقيقة الإيمانية ذات البعد الغيبي.

قائمة المصادروالمراجع

- القرآن الكريم
- ابن منظور جمال الدين(1999). لسان العرب. (ج14). بيروت، لبنان: دار إحياء التراث
- ابن منظور جمال الدين(2003). لسان العرب. (باب القاف). القاهرة، مصر: دار الحديث
- أركون محمد(1995). الإسلام أوربا والغرب رهانات وإرادات الهيمنة. (تر: هاشم الصالح). بيروت، لينان: دار الساقي
- أركون محمد(1996). الفكر الإسلامي نقد واجتهاد. (تر: هاشم الصالح). بيروت، لبنان: دار الساقي
- بن نبي مالك (2000). الظاهرة القرآنية. (تر: عبد الصبور شاهين). دمشق، سوريا: دار الفكر
- الجرجاني عبدالقاهر (2006.) التعريفات. دم: مؤسسة الحليمي
- الزركشي بدر الدين (1990). البرهان في علوم القرآن. (تحقيق: ع الرحمن المرعشلي). ج1. بيروت، لبنان: دار المعرفة
- تواتي منير (2021). مدخل إلى النظر الفلسفي للدين. مجلة دراسات للعلوم الاجتماعية والإنسانية. (ج/وهران2 المجلد 10ع/2خ). جامعة وهران2: الجزائر
- حاج حمد(2003). منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية. بيروت، لبنان: دار الهادي
- حاج حمد(2004). ابستمولوجيا المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج. بيروت، لبنان: دار الهادي
- حاج حمد(2004). الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع الع ربي الراهن. بيروت، لبنان: دار الهادي
- حاج حمد(2004). القرآن والمغيرات الاجتماعية والتاريخية. بيروت، لبنان: دار الساقي
- حاج حمد(2004). جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية. بيروت، لبنان: دار الهادي
- حمادي هواري(2012). النص القرآني وآليات الفهم المعاصر. (أطروحة دكتوراه غير منشورة). قسم الفلسفة، جامعة وهران
- دواق الحاج(2015). الابيستمولوجيا الكونية والمنهج المعرفي التوحيدي. عمان، الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي
- الزرقاني عبد العظيم(1995). مناهل القرفان في علوم القرآن. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي
- الصبيحي محمد (د ت). مدخل إلى علم النص. بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون
- قاسمي محمد(2020). البعث الحضاري بين مالك بن نبي وأبو القاسم حاج حمد. مجلة دراسات للعلوم الاجتماعية والإنسانية. (ج/وهران2 المجلد 09ع/03). جامعة وهران2: الجزائر
- مرزوق العمري(2012). إشكالية تاريخية النص الديني. الرباط، المغرب: دار الأمان.